التوبة وأثرها في التكامل الأخلاقي عند دستغيب

المدرس الدكتور
انتصار سلمان سعد الزهيري
جامعة الكوفة ـ كلية الآداب
Dr entisar alziheri@gmail.com

Repentance and its effect on ethical integration due to Dastsghaib's opinion

Ph.D
Intisar Salman Saad Al-Ziheri
University of Kufa - College of Arts

الملخص:

الله سبحانه وتعالى الطافه عظيمة ورحمته واسعة، لطف بها على عباده، بأن جعل لهم باب التوبة مفتوحا، خاصة وأن الإنسان غارق في الذنوب والمعاصي من نفسه الإمارة بالسوء، إلاَ إنَ الإنسان يتشرف بالرحمة الإلهية ليترجمها بالتوبة والندم والرجوع الى الحضرة الإلهية، فالتوبة باب الله المفتوح التي فتحها الله لعباده لكي ينقذهم من خطايا انحدارهم في الذنوب والمعاصي، ولذا كانت حاجة الإنسان إلى التوبة حاجة ضرورية ملحة لتصقل وتطهر نفسه الإمارة بالسوء، ولما لها من تأثير في التحولات الأخلاقية، اي أنها تحول الفعل الإنساني السيء إلى الفعل الخلقي الحسن، ولذا فالتوبة اثرا كبيرا في حدوث التكامل الأخلاقي عند الإنسان.

الكلمات المفتاحية: للبحث: التوبة، التكامل الأخلاقي، دستغيب، الرذيلة، الرجاء، التحولات الأخلاقية.

Abstract:-

God, the glorified and exalted, has the great gentleness and mercy. One of His virtues is repentance. He grants human beings many ways to ask for forgiveness and repentance Mankind always commits sins and guilt's from time to time. The greatest evil enemy of mankind is his ego. Mankind feels very honored to have God's mercy and he has to show regret about having terrible sins by confessing his sins to get repentance and forgiveness God explains to all human beings that sins are wiped out by sincere repentance, most human beings are terrified of going to hell when they die. So repentance is an absolute necessity of having God's mercy to purify their souls. Hence, this has a great effect on ethical transformation i.e.it transforms mankind's bad deeds into very good deeds accepted by God. That's why repentance is of a good value to ethical integration of mankind.

Key words: Repentance, Ethical integration، Dastagheeb, Vice, Expectation, Ethical transformation.

المقدمة:ـ

لقد اصطفى الله تعالى الإنسان ليجعله خليفة في الأرض، وقد اصطفاه الله تعالى وكرمه أحسن تكريم، وهذا التكريم جاء من لدن الباري عز وجل موازيا للقيمة الإنسانية التي منحت لهذا المستخلَف على الأرض، والإنسان هو خليفة الله وروح العالم، وهو أرقى تجليات الله في هذا الكون وإليه يعود الهدف والغاية التي خلق من أجلها، ولهذا الإنسان المقدرة على الكمال والترقي، إلاّ أنّ هذا الإنسان غالباً ما يكون غارق في بحر الآثام والمعاصي بعيداً عن نور الهدى والإيمان، فهو غالباً ما يكون كثير الخطأ، ولا ينجو من أي خطيئة ممكن أن يرتكبها بحق نفسه لأنّ كل ابن آدم خطاء، ولهذا هو مستعد استعداداً روحياً وجسدياً لارتكاب الخطيئة، إلاّ أنّ الباري جل شأنه ألطافه عظيمة ورحمته واسعة نعم فيها على عباده، بأن فتح للإنسان باب التوبة.

وهنا نلتمس الرعاية الإلهية من الباري جل شأنه اتجاه الإنسان العاصي الغارق بالذنوب، بأنّها فتحت أبوابها وشرعت نوافذها لهذا الإنسان بأن يرجعه إلى فطرته السليمة الأولى، وإلى ضميره الحي وبعض مقدساته، ويلوي الإنسان عنان نفسه الأمّارة بالسوء إلى رحاب توبتها ورجوعها إلى بارئها الذي أحاط بكل شيء، يخص هذا الإنسان وتحت رعايته فإنّه أقرب إليه من حبل الوريد، لهذا فالإنسان يتشرف بالرحمة الإلهية ليترجمها بالتوبة والندم والرجوع إلى الحضرة الإلهية، فالتوبة باب من أبواب الله تعالى المشرعة التي فتحها الى عباده لكي يفيقهم من سباتهم وغيبهم وانحدارهم في هذه الحياة، ولذا فالإنسان بحاجة ماسة إلى التوبة بل أنّ ضرورتها إليه ملحة خاصة وإنّه كثير الخطأ ويذنب كثيراً، فهو يحتاج إلى ما يصقل قلبه من المعاصي والذنوب.

ولقد جاء هذا البحث في التوبة وأثرها في التكاملات الأخلاقية عند شخصية علمية إسلامية معرفية كانت له كتابات قيمة في المواعظ والدروس الأخلاقية، الشهيد دستغيب (ت١٩٨١م)، إنّه مفكّرٌ يغوص في أعماق النفس الإنسانية، وقد امتازت موضوعاته بالتنوع والوضوح وقربها من واقع الإنسان وحياته، ولذا اقتضت صورة البحث أن يقسم إلى مقدمة وثلاث مباحث وخاتمة.

فأمّا المبحث الأول فدرست فيه الحقيقة الأخلاقية للتوبة، إذ يرى دستغيب أنّ الله سبحانه وتعالى برحمته ولطفه قد أنعم على الإنسان بأن جعل له باباً من أبواب رحمته، ألا وهو باب التوبة وجعلها وسيلة أخلاقية لنجاته وخلاصه واقلاعه عن الرذائل الأخلاقية التي هي محط هلاكه ودماره، فالتوبة تنجيه وتنتشله من قعر الخطيئة وآثارها العميقة، ومن العصيان والهلاك إلى طريق النجاة والعودة إلى الله تعالى، كما ويدرس البحث التوبة باعتبارها سلوكاً أخلاقياً مرتبطاً بفعل الإنسان يُقدم عليه من أجل الخلاص والظفر بالنجاة من المهلكات والآثام، والتوبة قائمة على الخوف والندم إذ جعل الإنسان في قلبه الخوف والندم حاضران في كل فعل يقدم عليه فإنّه سوف ينجيه ويرشده الى طريق الخير والسعادة، خاصة وأنّ نفسه الأمارة بالسوء ترشده دائماً إلى الجهل بفعل الأشياء التي تجلب له الشقاء والهلاك، ويرى دستغيب أنّ هذه النفس الإمارة بالسوء طريق علاجها هو محاسبتها يومياً، فعندما يحاسب الإنسان نفسه باستمرار، ويعزم على عدم فعل المعاصي فإنّه ينجو من الآثام، وتشير الدراسة أيضاً إلى أنّ التوبة التي ينشدها الإنسان هي توبة خالصة لله توبة نصوحة خالية من النفاق على الله تعالى، أي أن تكون نابعة من إيمان صادق وخوف من الله تعالى ورجاء لمغفرته، ولا تكون توبة كذب ونفاق على الله تعالى أي يدعي الإنسان أنّه يخاف الله ومن غضبه ومن حسابه، وبالمقابل يرتكب المعاصي ويسلكها في سلوكه المعتاد.

وأمّا المبحث الثاني، فدرست فيه فضائلية التوبة في التحولات الأخلاقية، حيث يرى دستغيب أنّ التوبة النصوحة تُحدِث أثراً واضحاً في تحويل الفعل الإنساني من الرذائل التي سببها معاصي الإنسان وأعماله السيئة إلى الفضائل والعمل بالفعل الحسن وتجنب المعصية، ولهذه التوبة النصوحة فضائل أخلاقية أخرى حيث لا تقف حدودها عند فضيلة واحدة، وهي الإقدام على الفعل الحسن، بل تتبعها فضائل أخلاقية أخرى كلها تعود على الإنسان بأفعال حسنة خيرة تؤدي به إلى الخير السعادة، فمن فضائلها فضيلة الطاعة التي تجعل فعل الإنسان دائماً متجه نحو طاعة الله تعالى من خلال الامتثال لأوامره عز وجل، والعمل بما يرضيه واجتناب معاصيه، كذلك من فضائلها الأخلاقية تنقل الإنسان من رذيلة الظلم إلى فضيلة العدل والأنصاف مع نفسه ومع الغير، وأيضاً من فضائلية التوبة تجنب الإنسان من رذيلة الرياء والمخالفة إلى فضيلة السلوك الحسن والفعل الخير في نفسه ومع غيره.

في حين درست في المبحث الثالث آثر التوبة في التكاملات الأخلاقية، حيث يتبين في الدراسة أنّ للتوبة اثراً واضحاً على الإنسان أي تحول فعله الأخلاقي من الرذائل إلى الفضائل، أي أنّها تصل به إلى درجة التكاملات الأخلاقية، خاصة وأنّها تنجيه من المعاصي وغضب الله لتصل به إلى بر الأمان أي إلى طريق النجاة وطاعة الله تعالى، وفي التوبة تكاملات أخلاقية والخلاص من كل رذيلة مهما كان صغر حجمها وقدرها، فيها نجاة من رذيلة الرياء والاحتيال في فعله مع الله تعالى ومع الآخرين، فيها الرجوع عن السيئة والتوجه الى الله بطاعته و فيها الرجوع عن الباطل إلى طريق الحق، فضلاً عن ذلك في التوبة تكاملات أخلاقية لاستئصال مرض المعاصي والذنوب وحضيض الرذائل والانتقال إلى شموخ الفضائل، والمكانة الرفيعة وهذه المكانات لا تحصل عند الإنسان إلى في التوبة، وأما الخاتمة فتضمنت أهم النتائج البحث، والحمد لله رب العالمين.

المبحث الأول

الحقيقة الأخلاقية للتوبة

ذهب دستغيب إلى أنّ التوبة تدخل ضمن باب الفضل الإلهي على الإنسان الباحث عن النقاء الأخلاقي من القذارات الرذيلة والذنوب المعيقة للتكاملات، وبها الإنسان يُنقّي سلوكه الخارجي والقلبي، إذ "ليس خافياً على أصحاب البصيرة أنّ التوبة شعبة من الفضل الإلهي العظيم، وباب من أبواب الرحمة الرحيمية الإلهية التي فتحها لعباده، ولو كان هذا الباب مغلقاً لما كان لأحد فلاح، لأنّ البشر مجبولون على المعصية والخطأ والاشتباه، حيث أنّ الإنسان يلوث نفسه بحسب أعمال الجارحة والجانحة (بالأعضاء والقلب) بأنواع القذارات إلاّ بالمقدار الذي يحفظه الله"[١]. يقول دستغيب " ان الله عندما امر عباده بالتوبة اعتبر نفسه بالمقابل مضطرا لقبول التوبة، لأنه لا يمكن ان يرد سائلاً لجأ اليه كيف هذا وهو الغفور الرحيم؟ هل يمكن ان يخيب امل عبد لجأ اليه تائباً"[٢] قال الإمام الصادق عليه السلام: ((التوبة حبل الله ومدد عنايته، ولابد للعبد من مداومة التوبة على كل حال، وكل فرقة من العباد لهم توبة، فتوبة الأنبياء من اضطراب السر، وتوبة الأولياء من تكوين الخطرات، وتوبة الأصفياء من التنفيس، وتوبة العام من الذنوب، ولكل واحد منهم معرفة وعلم في اصل توبته ومنتهى امره))[٣].

وبيَّن الغزالي أنّ الذنوب التي يتوب عنها الإنسان هي على ثلاثة أقسام، فالذنوب التي تعيق تكاملات الإنسان الأخلاقية هي "أحدها: ترك واجبات الله تعالى عليك، من صلاة وصيام أو زكاة أو كفارة أو غيرها، فتقضي ما أمكنك منها، والثاني: ذنوب بينك وبين الله سبحانه وتعالى، كشرب الخمر وضرب المزامير وأكل الربا ونحو ذلك، فتندم على ذلك، وتوطن قلبك على ترك العود إلى مثلها أبداً، والثالث: ذنوب بينك وبين العباد، فهذا أشكل وأصعب، وهي أقسام، قد تكون في المال أو في النفس أو في العِرض"(٤).

وذكر دستغيب أنّ التوبة هي وسيلة أخلاقية للإقلاع عن الأخلاق الرذيلة المعنوية خاصة، حيث "لا يستطيع الإنسان (وحتى الكثير من الأنبياء) أن يحفظ نفسه من أنواع الخطأ والمعصية وأن يحفظ فطرته الأولى (طبعاً أخطاء الأنبياء غير أخطاء الآخرين كما يذكر) وبناءً عليه فقد جعل الله الحكيم والرحيم التوبة دواء من الأمراض المعنوية وعلاجاً للأمراض القلبية ومطهراً من أنواع القذارات حتى يتطهر الإنسان بعد الابتلاء بالمعصية ببركة التوبة ويصبح من أهل النجاة"(٥).

والتوبة مرتبطة أخلاقاً بسلوك الإنسان من الناحية الفعلية، لأنّها "عبارة عن معنى، ينتظم من ثلاثة أمور مرتبة: علم، وحال، وفعل، وكل واحد يقتضي الذي يليه، اطراد سنة الله في ملكه، أما العلم، فهو معرفة عظم ضرر الذنوب، وكونها حجباً بين العبد وبين كل محبوب، فإذا عرف ذلك معرفة محققة بيقين غالب على قلبه، ثار من هذه المعرفة تألم القلب بسبب فوات المحبوب، فإن كان فواته بفعله تأسف على الفعل المفوت، فيسمى تألمه - بسبب فعله المفوت لمحبوبه - ندماً، فإذا غلب هذا الألم على القلب واستولى، انبعث من هذا الألم في القلب حالة أخرى تسمى إرادة وقصداً إلى فعل له تعلق بالحال والماضي وبالاستقبال، أما تعلقه بالحال، فبالترك للذنب الذي كان ملابساً، واما بالاستقبال، فبالعزم على ترك الذنب المفوت للمحبوب إلى آخر العمر، وأما بالماضي، فبتلافي ما فات بالجبر والقضاء إن كان قابلاً للجبر"(٦).

وذهب دستغيب إلى أنّ التوبة قائمة على عنصرين أخلاقيين هما عنصر الخوف وعنصر الندم، إذ "نقول إنّ أهل الإيمان يعلمون أنّ الله حاضر وناظر وهم خائفون من بطشه، مشفقون من عدله، ولذا فإنّهم أبداً لا يعصون عن تجبر وانكار للمجازاة الإلهية، بل أنّهم

إذا أذنبوا فلغلبة النفس والشيطان وركونهم المفرط للحلم الإلهي، ودليل ذلك الندامة فيما بعد والسعي لتحصيل التوبة والتعويض، وباختصار أنّ صدور الذنب ليس دليلاً عدم الإيمان، بل أنّ عدم الندم هو دليل عدم الإيمان"[٧]. كما آشار دستغيب في موضع آخر أن الندم هو احد شرطي التوبة إذ قال "إن للتوبة شرطيين اساسيين هما الندم على اقتراف من الذنب والمعصية اولاً، والتصميم على الإمتناع والترك في المستقبل ثانياً. لذلك فالذي يرى نفسه أنه لامحالة ميت وهالك، وليس امامه من مستقبل يبني عليه الآمال السيئة، والنوايا الخبيثة في اقتراف المزيد من الذنوب والآثام، او ربما يتجنبها ويمتنع عنها فان توبته هذه كالتوبة في زوايا القبر، لا فائدة منها ولو كان يُقبلُ مثلها لقُبلت التوبة في جهنم ايضاً"[٨].

وأحياناً يُطلق اسم التوبة على ثلاثة معانٍ، لأنّ "العلم والندم والقصد - المتعلق بالترك في الحال والاستقبال، والتلافي للماضي - ثلاثة معانٍ مرتبة في الحصول، فيُطلق اسم التوبة على مجموعها، وكثيراً ما يُطلق اسم التوبة على معنى الندم وحده"[٩].

وأعطى دستغيب أهمية بالغة للعنصر الأخلاقي الذي هو الندم بوصفه حقيقة التوبة بشكل خاص، حيث "حقيقة التوبة هي الندم على المعصية لجهة سوئها أمام الله وأنّها خلاف رضاه، كالغلام الذي يقوم بعمل يخالف رضا مولاه، غافلاً عن أنه يراه، وعندما يعلم أنّه يراه يندم على فعله ندماً شديداً، وكالتاجر الذي يقوم بمعاملة فيخسر فيها رأس ماله وتتراكم عليه الديون، فكم يندم على تلك المعاملة؟ خصوصاً إذا نهاه عنها صديقه العارف، ومثل الذي ينهاه الطبيب عن أكل طعام معين، فكم يندم بعد أن يأكل منه ويصيبه ما يصيبه نتيجة لذلك"[١٠]. قال النبي محمد ﷺ ((الندم توبة))[١١].

وذهب الغزالي إلى أنّ الندم هو من بواعث التوبة، إذ قال "اعلم أولاً أنّ الندم غير مقدور للعبد، ألا ترى أنّه تقع الندامة عن أمور في قلبه، وهو يريد أن لا يكون ذلك، والتوبة مقدورة للعبد مأمور بها... ثم من شروط التوبة أن لا يتعمد ذنباً، فأما إن وقع منه بسهو أو خطأ فهو معفو عنه بفضل الله تعالى، وهذا هيّن على من وفقه الله تعالى، فإنْ قلت إنما يمنعني من التوبة أني أعلم من نفسي أني أعود إلى الذنب ولا أثبت على التوبة فلا فائدة في ذلك، فاعلم أنّ هذا من غرور الشيطان، ومن أين هذا العلم؟ فعسى أن تموت تائباً قبل أن تعود إلى الذنب، وأما الخوف من العود، فعليك العزم والصدق في ذلك، وعليه الإتمام،

فإن أتمّ فذاك من فضله، وإن لم يتم فقد غُفِرَتْ ذنوبك السالفة كلها، وتخلصت منها، وتطهرت، وليس عليك إلاّ هذا الحدث الذي أحدثته الآن وهذا هو الربح العظيم والفائدة الكبيرة ولا يمنعك خوف العودة عن التوبة، أبداً بين إحدى الحسنيين"[١٢].

وبيَّن دستغيب أنّ التوبة أحياناً لا تكون باباً للتزكية وإنما تكون باباً لإتمام الحجة على مرتكب الرذيلة الذي لا يستغل باب الفضل الإلهي، إذ هَنّأ دستغيب "مَن عرف قدر باب الرحمة هذا واستفاد منه وشكر الله على موهبته هذه، وتعساً لمن كان باب الرحمة هذا اتماماً للحجة عليه فقط، فيقف يوم القيامة خلال سؤاله عن أعماله عند الحساب فيعتذر عن أعماله قائلاً: إلهي كنت جاهلاً أسيراً للشهوات والغضب والهوى والهوس وكنت عاجزاً عن مقاومة وساوس الشيطان، فيكون جواب كل أعذاره: ألم نفتح لك باب التوبة؟ هل كلفناك بما لا تطيق وهل جعلنا للتوبة شروطاً صعبة لا تقدر عليها"[١٣]؟

ولا تكون التوبة إلاّ من خلال المحاسبة اليومية للنفس، حيث "ينبغي محاسبة النفس كل يوم وملاحظتها، وحمد الله على الحسنات، وتدارك السيئات"[١٤]، لما ورد عنهم آهل البيت عليهم السلام، قال الأمام الكاظم عليه السلام في حديث مع هشام بن الحكم: ((ليس منا من لم يحاسب نفسه في كل يوم، فإن عمل حسنا استزاد، وإن عمل سيئا استغفر الله منه وتاب اليه))[١٥].

وذهب دستغيب إلى أنّ فضيلة الندم قائمة على فضيلة الإيمان، وبدون الإيمان لا تتحقق التوبة من الرذائل، فمن الطبيعي "كلما كان الإيمان بالله ويوم الجزاء والتصديق بأخبار النبي والإمام أكبر كلما كان الندم من المعصية أكبر وكانت نارها في الداخل أشد، كما أنّ من لوازم الحسرة والندم، العزم على تركها في المستقبل، لأنّه إذا لم يصمم على تركها فمن الواضح أنّه غير نادم على ارتكابها حقيقة... ومن لوازم الحسرة والندم على المعصية أيضاً السعي في تركها، فإذا كانت من حق الله كترك الصلاة والصيام، الزكاة والحج قضاها، وإذا كانت من حق الناس فكانت حقاً مالياً أعاده إلى صاحبه، وإذا كان ميتاً أعاده لورثته، وإذا لم يعلم من هو تصدق به عنه، وإذا كان حقاً عرضياً طلب منه أن يسامحه وأرضاه، وإذا كان الحق قصاصاً أو دية سلمه نفسه حتى يقتص منه، أو يأخذ منه الدية أو يسامحه، وإذا كان الحق إقامة للحد كما في القذف سلم نفسه لصاحب الحق ليقيم الحد عليه أو يعفو عنه"[١٦].

وبيَّن دستغيب رذيلة النفاق على الله في لوازم الإيمان بعفو الله ومغفرته، إذ "يكون الشخص ذا إيمان ضعيف بالله ويوم الجزاء ولكنه لا يتحلى بشيء من لوازم هذا الإيمان أو أنّ فيه ضعفاً كبيراً في هذا المجال، ولكنه يدّعي كذباً أنّه يمتلك هذه اللوازم ويتحلى بها، مثلاً: كأن لا يكون في نفسه وقلبه أي خوف من القيامة والحساب وميزان الأعمال ونار جهنم، إلاّ أنّه يدّعي أنّه يخاف الله، وأنّه يخاف يوم القيامة وحسابها، ودليل كونه كاذباً عدم اجتنابه الذنوب، حيث أنّ من خاف العدل الإلهي والعقاب الإلهي من المستحيل أن يمعن في المعاصي غير آبه بشيء"(١٧).

وعليه قرَّر دستغيب أنّ من موانع التوبة هي رذيلة النفاق تجاه المولى تعالى، فالمنافق لا يوفَّق للتوبة، لأنّ "من موارد النفاق على الله في لوازم الإيمان ادعاء الرجاء بالله من الشخص الذي ليس في قلبه أمل بالله أو أنّ أمله ضعيف جداً، أي يقول أنا مؤمَل بربي في حين أنّه يكذب ويتهرب من بذل عمره وماله في سبيل الله كأن يعتبر الانفاق في سبيل الله ضرراً ولا يؤمل أن يعوض الله عليه ذلك في الدنيا والآخرة، ولو أنّه كان من أهل الأمل بالله لما تهرب من بذل روحه في سبيل الله ولكان اجتنب الاتجار مع غيره ولو بدرهم لا قيمة له"(١٨).

والذي لا يتذكر ذنبه بصورة دائمة يقع في النفاق، حيث "ورد أنّ المؤمن ليذكر ذنبه بعد عشرين سنة حتى يستغفر ربه فيغفر له، وأنّ الكافر لينساه من ساعته، وورد أنّ الله إذا أراد بعبد خيراً فأذنب ذنباً أتبعه بنقمة ويذكّره الاستغفار"(١٩).

وذكر دستغيب طريقة تجاوز النفاق بحق المولى تعالى حتى تكون التوبة تامة، إذ "نُقِل عن أحد الأعلام أنّك إذا سُئلتَ هل تخاف الله فاسكتْ ولا تجب لأنّك إنْ قلت (لا) كفرت بما أخبر الله به من مجازاة يوم القيامة، وإنْ قلتَ (نعم) فقد كذبت لأنّ علامة الخوف من الله الفرار من الذنوب"(٢٠).

وقد ذكر الغزالي أربعة شروط للتوبة على النحو الآتي: "أحدها: ترك اختيار الذنب... والثانية: أن يتوب عن ذنب قد سبق عنه مثله... والثالثة: إنّ الذي سبق يكون مثل ما يترك اختياره في المنزلة والدرجة لا في الصورة... والرابعة: أن يكون ترك اختياره ذلك، تعظيماً لله سبحانه وتعالى، وحذراً من سخطه وأليم عقابه، مجرداً لا لرغبة دنيوية، أو رهبة من الناس،

أو طلب ثناء أو صيت، أو جاه أو ضعف في النفس أو فقر أو هوان أو غير ذلك، فهذه شرائط التوبة وأركانها، فإذا حصلت واستكملت، فهي توبة حقيقية صادقة"(٢١).

ثم أدخل دستغيب عنصراً آخر للتوبة في حال لم ينل المرتكب للرذيلة جزاءه العاجل، وهذا العنصر هو الرجاء الذي يجب أن يمارسه الإنسان التائب عن القبائح، لأنّه "إذا اكتفى بالتوبة يجب أن يبقى في حالة بين الخوف والرجاء من قبول توبته وسقوط العقاب عنه، وظاهر الآيات والروايات أنّه يجب الاستغفار بعد الندم"(٢٢).

ووجوب التوبة واضح للإنسان "بالأخبار والآيات، وهو واضح بنور البصيرة عند من شرح الله بنور الإيمان صدره، وعلم أنّ لا سعادة في دار البقاء إلاّ في لقاء الله تعالى، وعلم أن لا مبعد عن لقاء الله إلاّ اتباع الشهوات، والأنس بهذا العالم الفاني، وعلم أنّ الذنوب - التي هي إعراض عن الله - سبب كونه محجوباً مبعداً عن الله تعالى، فلا يشك في أنّ الانصراف عن طريق البعد واجب للوصول إلى القرب"(٢٣).

وهنا يتحدث دستغيب عن جانب العطاء الأخلاقي لفضيلة التوبة، فالتوبة تفتح باب الأمل وباب السعي نحو الطاعة، حيث "دليل الخوف من الله اجتناب الذنوب والتوبة إليه تعالى، فإنّ علامة الأمل بالثواب الإلهي السعي في الطاعة، كما في الأعمال الدنيوية حيث يبذل الإنسان جهوداً لأنّ له أملاً مادياً، وخاصة عندما يكون له طمع باستحصال المال فإنّه يرتكب في سبيل ذلك من الأعمال ما لا يقال ولا يُكتب... والنفاق على الله في أنواع العبادات من الواجبات والمستحبات البدنية والمالية كالصلاة والصوم والزكاة والخمس والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يكون بأن يؤدي الشخص عبادة في حين أنّ تمام الداعي أو جزء الداعي والتحرك في هذا العمل من أجل أن يظهر نفسه للناس بمظهر المتدين ليكسب بذلك جاهاً ومنزلة، خص من هذا النوع يسمى يوم القيامة بأربعة أسماء: الغادر، الفاجر، الكافر، الخاسر، وطبقاً للآيات والأخبار فإنّ عمله حرام وباطل وهو في الآخرة معذب إلاّ أنْ يتوب"(٢٤).

والتوبة منجاة أخلاقية للإنسان من المهلكات، لأنّ "وجوبها على الفور لا يستراب فيه، إذ كون معرفة المعاصي مهلكات من نفس الإيمان، وهو واجب على الفور، فاعلم بضرر الذنوب إنما أريد ليكون باعثاً على تركها، فمن لم يتركها فهو فاقد لهذا الجزء من الإيمان...

وما أراد به نفي الإيمان الذي يرجع إلى صفات الله ووحدانيته، فإذنّ ذلك لا ينفيه الزنا والمعاصي، وإنما أراد نفي الإيمان لكون الزنا مبعداً عن الله تعالى موجباً للمقت"[٢٥].

وعليه ترى الباحثة أنَ دستغيب يرى أنَ الله تعالى للطفه ورحمته التي رحم بها العباد بان جعل باب التوبة مفتوحاً للإنسان، وهذا باب امل يُنجيه من خطايا ذنوبه، ولذا على الإنسان أنَ لا يبقى غارقا في اهواء نفسه الإمارة بالسوء، وانما عليه أنَ ينعم بفضل الله ونعمته عليه ويتجه إلى طريق التوبة النصوحة القائمة على الندم والعزم على عدم الرجوع إلى الخطيئة والمعصية، وهذه التوبة هي التي تُنجيه من طريق الهلاك والضياع وتبعث به إلى الطاعة والسعادة الدائمة.

المبحث الثاني

فضائلية التوبة في التحولات الأخلاقية

تحدَّث دستغيب عن أثر التوبة النصوح في التحولات الأخلاقية من الرذائل إلى الفضائل، إذ تجب التوبة من المعصية كبيرها وصغيرها باتفاق جميع العلماء، وبحكم العقل التوبة واجبة لدفعها الضرر الذي هو العقاب أو الخوف، ودفع الضرر واجب، فما هي التوبة النصوح؟ معنى التوبة النصوح عدة وجوه ذكرها المفسرون: منها: أن المراد توبة تنصح الناس، أي تدعوهم إلى أن يأتوا بمثلها لظهور آثارها الجميلة في صاحبها، أو تنصح صاحبها فيقلع عن الذنوب ثم لا يعود إليها، ومنها: أن النصوح ما كانت خالصة لوجه الله سبحانه، من قولهم: غسل نصوح، إذا كان خالصاً من الشمع، بأن يندم على الذنوب لقبحها أو كونها خلاف رضا الله سبحانه، لا لخوف النار مثلاً، ومنها: أن النصوح من النصاحة، وهي الخياطة، لأنّها تنصح من الدين ما مزقته الذنوب، أو يجمع بين التائب وبين أولياء الله وأحبائه، كما تجمع الخياطة بين قطع الثوب، ومنها: أن النصوح وصف للتائب، واسناده إلى التوبة من قبيل الإسناد المجازي، أي توبة ينصحون بها أنفسهم بأن يأتوا بها على أكمل ما ينبغي أن تكون عليه، حتى تكون قالعة لآثار الذنوب من القلوب بالكلية، وذلك بإذابة النفس بالحسرات، ومحو ظلمة السيئات بنور الحسنات[٢٦]. قال الله تعالى في كتابه الكريم ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَى رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾[٢٧]، وقال الأمام علي عليه السلام في التوبة النصوح: ((التوبة

تجمعها ستة أشياء الندم على ما مضى من الذنوب، واعادة الفرائض، ورد المظالم، واستحلال الخصوم، وأن تعزم على أن لا تعود الى المعاصي، وأن تذيب نفسك في طاعة الله كما في ربيتها في المعصية وتذيقها مرارة الطاعات كما اذاقتها حلاوة المعاصي))[٢٨].

وقد تساءل الغزالي عن معنى التوبة النصوح ودورها في درجات التكاملات الأخلاقية، إذ قال "فما معنى التوبة النصوح وما حدها؟ و ما ينبغي للعبد أن يفعله حتى يخرج من الذنوب كلها فأقول: أمّا التوبة فإنّها سعي من مساعي القلب، وهي عند التحصيل في قول العلماء، رضي الله عنهم، تنزيه القلب عن الذنب... إنّه ترك اختيار ذنب سبق مثله عنه، منزلة لا صورة، تعظيماً لله تعالى وحذراً من سخطه"[٢٩].

ومن التحولات الأخلاقية التي تحققها التوبة للإنسان بالنسبة لعلاقته بخالقه فهي ظهور فضيلة الطاعة وانتقال الإنسان إليها من رذيلة المعصية، حيث "أنّه لا يكفي في جلاء المرآة قطع الأنفاس والأبخرة المسودة لوجهها، بل لا بد من تصقيلها وإزالة ما حصل في جرمها من السواد، كذلك لا يكفي في جلاء القلب من ظلمات المعاصي وكدوراتها مجرّد تركها وعدم العود إليها، بل يجب محو آثار تلك الظلمات بأنوار الطاعات، فإنّه كما يغمر القلب من كل معصية ظلمة وكدورة، كذلك يرتفع إليه من كل طاعة نور وضياء، فالأولى محو ظلمة كل معصية بنور طاعة تضادها، بأن ينظر التائب إلى سيئاته مفصلة، ويطلب لكل سيئة منها حسنة تقابلها، فيأتي بتلك الحسنة على قدر ما أتي بتلك السيئة"[٣٠].

أمّا التحولات الأخلاقية التي تحققها التوبة للإنسان بالنسبة لعلاقته بأخيه الإنسان فهي انتقال الإنسان من رذيلة الظلم إلى فضيلتي الانصاف والعدل، ففي مجال "حقوق الناس فيخرج من مظالمهم أولاً بردها عليهم، والاستحلال منهم، ثم يقابل ايذاءه لهم بالإحسان إليهم، وغصب أموالهم بالتصدق بماله الحلال، وغيبتهم بالثناء على أصل الدين واشاعة أوصافهم الحميدة، وعلى هذا القياس يمحو كل سيئة من حقوق الله أو حقوق الناس بحسنة تقابلها من جنسها، كما يعالج الطبيب الأمراض بأضدادها"[٣١].

وقد ذكر دستغيب أنّ التوبة بطبيعتها تولّد لدى الإنسان حالة من التحولات الأخلاقية السريعة نحو الفضائل، فلا ريب في وجوب التوبة على الفور، فإنّ الذنوب بمنزلة السموم المضرة بالبدن، ومن أهمل المبادرة إلى التوبة وسوّفها من وقت إلى وقت فهو بين خطرين

عظيمين، إن سلم من واحد فلعله لا يسلم من الآخر، أحدهما: أن يعاجله الأجل فلا ينتبه من غفلته إلاّ وقد حضر الموت وفات وقت التدارك، وانسدت أبواب التلافي، وثانيهما: أن تتراكم ظلمات المعاصي على قلبه إلى أن تصير ريناً وطبعاً فلا تقبل المحو، وقد يعبر عن هذا القلب بالقلب المنكوس والقلب الأسود، وصاحب هذا القلب من يرجع عن المعاصي ولا يتوب منها أبداً، ولو قال بلسانه تبت إلى الله، يكون هذا القول مجرد تحريك اللسان من دون موافقة القلب، فلا أثر له أصلاً، كما أن قول القصارة غسلت الثوب، لا يصير الثوب نقياً من الأوساخ، وربما يؤول حال صاحب هذا القلب إلى عدم المبالاة بأوامر الشريعة ونواهيها، فيهون أمر الدين في نظره، ويزول وقع الأحكام الإلهية من قلبه، وينفر عن قبولها طبعه، ويجر ذلك إلى اختلال عقيدته وزوال إيمانه، فيموت على غير الملة، وهو المعبر عنه بسوء الخاتمة(٣٢).

وبيَّن دستغيب أنّ التحولات الأخلاقية الصادقة مبنية في الأساس على تقويض مجالات رذيلتي الرياء والمخالفة، لأنّ "الروايات التي تتعرض لكذا مسائل تعني: ذهاب المتقي إلى الجنة، ومن هو على استعداد للذهاب، ومن كان أساس ذهابه صحيحاً، ويدعو الله على ذلك الأساس الملتزم، ولا تعني من يقرأ القرآن ويعمل خلافه تماماً، لأنّ الباري تعالى لا يقبل إلاّ من الخيِّرين والملتزمين والمتقين"(٣٣).

وينبغي تدرّب الإنسان على التخلص من الرياء من أجل الوصول إلى درجات الكمال الأخلاقي العالية، لأنّ "كل عمل يقدم عليه المسلم ويقصد به الخير وإرضاء الله تعالى دون مكسب دنيوي من شهرة ومال كان في سبيل الله"(٣٤).

ومن هذا المنطلق تذهب الباحثة إلى أنَ دستغيب اكد أنَ للتوبة اثراً كبيراً واهمية بالغة في أحداث التحولات الأخلاقية في الإنسان، إذ أنَ التوبة تحدث في نفسه تحولا أخلاقيا اي الانتقال من الرذائل التي اساسها المعصية والخطيئة إلى الفضائل الخلقية، وهذا بدوره يؤدي إلى تحقيق تحولات فضائلية اخرى، فمن الظلم والبغي إلى الانصاف والعدل ومن الرياء والمخالفة إلى الطاعة وعدم الرياء والايمان، وهذا كله يؤدي إلى الوصول إلى تكاملات أخلاقية في خُلق الإنسان وسلوكه.

المبحث الثالث

أثر التوبة في التكاملات الأخلاقية

بعد بيان الحقيقة الأخلاقية للتوبة وبعد بيان فضائليتها في التحولات الأخلاقية، صار دستغيب إلى توضيح أثرها في تكاملات الإنسان الأخلاقية وحصوله على مراتب أخلاقية أعلى تحصل له عادة بعد مرحلة التحولات الأخلاقية التي تنتج عن الاستغفار والتوبة، حيث "إنّ الاستغفار درجة العليين، وهو اسم واقع على ستة معانٍ: أولها: الندم على ما مضى، الثاني: العزم على ترك العود إليه أبداً، الثالث: أن تؤدي إلى المخلوقين حقوقهم حتى تلقى الله سبحانه أملس ليس عليك تبعة، الرابع: أن تعمد إلى كل فريضة عليك ضيعتها فتؤدي حقها، الخامس: أن تعمد إلى اللحم الذي نبت على السحت فتذيبه بالأحزان، حتى يلصق الجلد باللحم وينشأ بينهما لحم جديد، السادس: أن تذيق الجسم ألم الطاعة كما أذقته حلاوة المعصية، وإذا ما وجدت فيك هذه الأمور الستة فقل: أستغفر الله"[٣٥]، قال تعالى ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَىٰ﴾[٣٦].

ويمكن أن تحصل التكاملات الأخلاقية للإنسان ولو في آخر العمر إذا حصلت منه التوبة، إذ "إنّه تصح التوبة في آخر العمر ولو عند بلوغ النفس الحلقوم قبل أن يعاين أمر الآخرة[٣٧]، ورد عن النبي ﷺ قال ((أنّ من تاب قبل موته بسنة قبل الله توبته))[٣٨].

وذكر دستغيب استعظام الذنب والتوبة منه باعتباره درجة من درجات تكاملات المحبين، حيث قال "أدنى درجاتهم من استصغر طاعته واستعظم ذنبه وهو يظن أنّ ليس في الدارين مأخوذ غيره... إذن عالم حب الله رحب مترامي الأطراف، ومن الخطأ أن نحدّد له سقفاً هو عبارة عن مناجاة هادئة أو دعاء خاشع"[٣٩].

وذهب دستغيب إلى أنّ الإنسان يحصل بالتوبة على مراتب جديدة من الشعور الأخلاقي الداخلي بألم الرذائل لأنّ "حقيقة التوبة هي الحسرة والندم القلبيان وألم القلب، بسبب الذنب الذي ارتكبه، وكلما كانت حسرة القلب أكبر كانت توبته أقرب إلى القبول، وهذا تابع لمدى اعتبار الذنب كبيراً، لأنّه كلما رأى الذنب أكبر كلما أضيف على ندمه، كالذي يحترق ماله وما يملك نتيجة التسامح، ومن البديهي أنّه كلما كانت أملاكه أكثر عرضة

لخطر الاحتراق كلما زادت حسرته على تهاونه أكثر، خصوصاً إذا كانت ناراً يصعب اطفاؤها، وإذا وجد نفسه في معرض خطر الاحتراق بحيث لا يكون أمامه طريق للفرار ولم يكن من ينصره فكيف ستكون حاله، يجب أن يعلم هكذا شخص أنّه هيّأ النار لنفسه بحيث لا يستطيع الفرار منها ولا يستطيع أي مخلوق اطفاءها لأنّها نار قد استعرت من قهر وغضب الله القهار... واحراقها ليس كإحراق نار الدنيا"(٤٠).

وذكر الغزالي أنّ الترقي في الكمالات الأخلاقية لا يمكن أن يكون إلاّ بعد حصول التوبة من رذائلية الذنوب، إذ قال "إنّ شؤم الذنوب يُورِث الحرمان، ويُعقِب الخذلان، وإنّ قيد الذنوب يمنع من المشي إلى طاعة الله عز وجل، والمسارعة إلى خدمته وإنّ ثقل الذنوب يمنع من الخفة للخيرات، والنشاط إلى الطاعات، وإنّ الإصرار على الذنوب يسوّد القلوب، فتجدها في ظلمة وقساوة ولا خُلُوص فيها ولا صفاوة، ولا لذة لطاعة ولا حلاوة، وإن لم يرحم الله عز وجل فستجر صاحبها إلى الكفر والشقاوة، فيا عجباً، كيف يُوفَّق للطاعة من هو في شؤم معصية وقساوة؟ وكيف يُدعى إلى الخدمة من هو مصرٌّ على المعصية والجفوة؟ وكيف يُقرَّب للمناجاة من هو متلطخ بالأقذار والنجاسات(٤١)"؟

وحذَّر دستغيب من رذيلة الاحتيال في الأعمال وأوجب التوبة من هذه الرذيلة أخلاقاً وشرعاً، لأنّها لا تصد جريان نهر التكاملات الأخلاقية ودرجاتها، حيث قال "الويل لمن يقول بلسانه ما ليس بقلبه... فهل هو أحمق لا يدرك ما يفعل؟ أو هو محتال يقول بلسانه ما ليس بقلبه؟ إنّ هكذا أفراد قذرين هم أقل درجة"(٤٢).

وذهب الغزالي إلى ضرورة الانتهاء من رذيلة الاحتيال على الباري تعالى، فهذه الرذيلة تشكّل عقبة في طريق حصول التكاملات الأخلاقية، فمهما سعى الإنسان في طريق التكاملات الأخلاقية فلن ينالها بوجود هذه الرذيلة، إذن "عليك بقطع هذه العقبة المُخوفة، ذات المقاطع والمتالف التي في غاية التحرّز، فإنّ صاحب بضاعة الطاعة قد قطع تلك العقبات، وتحمّل تلك المشقات، حتى حصلت له بضاعة من العبادة عزيزة شريفة، فإنّه لا يخاف على بضاعته تلك، إلاّ في هذه العقبة، فإنّ فيها مقاطع يحذر أنْ تُسلَب فيها بضاعته، ومتالف يحذر أن يبدو له منها آفات تُفسِد عليه طاعاته"(٤٣).

وبيَّن دستغيب ضرورة إقلاع الإنسان عن رذيلة الرياء من حيث هو مضر بتوبة العبد مما

يؤثر سلباً على تكاملاته الأخلاقية، فالرياء هو امتداد لرذيلة النفاق مع الباري تعالى، فهو يرى أنّ "الرياء عند البدء بالعمل أو في اثنائه فهو... مبطل للعمل وإذا كان واجباً تجب إعادته، سواء كان الرياء تمام الداعي كما إذا كان عند البدء بالعمل إنما حمله على الاتيان به التقرب إلى الخلق فقط أو أنّه في أثناء العمل جاء شخص فأتمّ عمله بنية التقرب إلى الله وإلى الخلق"(٤٤).

وذكر الغزالي عدة أصول للرياء الذي يعوق التكاملات الأخلاقية للإنسان "الأصل الأول: الله سبحانه وتعالى يقول إني خلقت السماوات والأرض وما بينهما، في كل هذه الصنائع والبدائع، واكتفيت بنظرك لتعْلم أني عالم قادر وأنت تصلي ركعتين، مع ما فيهما من المعايب والتقصير، فلا تكتفي بنظري إليك... الأصل الثاني: إنّ من كان له جوهر نفيس، يمكنه أن يأخذ في ثمنه ألف ألف دينار فباعه بفلس، أليس يكون ذلك خسراناً عظيماً وغبناً فظيعاً، ودليلا بيّناً على خسة الهمة، وقصور العلم، وضعف الرأي وقلة العقل؟... الأصل الثالث: إنّ المخلوق الذي لأجله تعمل، ورضاه تطلب، لو علم أنك تعمل لأجله لأبغضك ولسخط عليك واستهان بك واستخف بك، فكيف يعمل العاقل العمل لأجل من لو علم به أنّه يطلب رضاه لسخط عليه وأهانه؟... الأصل الرابع: أنْ مَن حصل له سعي يمكن أنْ يكتسب به رضا أعظم ملك في الدنيا، فطلب به رضا كنّاس خسيس بين الناس، أفلا يكون ذلك دليلاً على السفه ورداءة الرأي منه وسوء الحظ، ويقال: ما حاجتك إلى رضا هذا الكنّاس مع إمكانك من رضا الملك؟ "(٤٥).

وذهب دستغيب إلى أنّ تهويل حجم الرذيلة مهما صغرت وبسطت كفيل بإعطاء دافع داخلي للإنسان بالمسير حثيثاً نحو درجات عالية من التكاملات الأخلاقية، إذ "يجب أن لا ينظر إلى صغر معصيته بل عليه أن ينظر إلى عظمة الرب الذي عصاه، وأن يعلم أنّ قهره شديد... والآيات التي تتحدث عن شدة عذاب الله وغضبه كثيرة، وخلاصة الأمر أنّه يجب على الإنسان العاصي أن يندم بشدة ويقلق فينوح ويتأوه ويبكي ولا يستكين حتى يطمئن إلى تطهره، وهذا لا يحصل إلاّ عندما تبشره الملائكة عند الموت بذلك، والعجيب أنّ هذا الأنين والحزن والألم هو الذي يخمد النيران ويزيل القذارات وينير الظلمات لتعود حاله كما كانت قبل المعصية... بل قد يصبح أحياناً أفضل مما كان قبل الذنب، حيث أنه ونتيجة لاستمرار

حالة اللوعة والألم لديه وسعيه في الإصلاح يقترب من خالقه ليصبح محبوبه"(٤٦).

وأشار دستغيب إلى حلاوة طعم التحول من حضيض الرذائل إلى شموخ الفضائل، حيث "إنّ الابتعاد عن المعاصي بشكل عام شيء جميل، والكف عن محارم الله في شهر الله الفضيل أجمل، لذا ينبغي علينا وعليكم أن نلتزم بهذا الأمر من خلال غضّ أبصارنا عما حرّم الله علينا، وكفّ أيدينا عن الحرام والشبهة، والسعي للتعامل مع الناس بكل أدب، وأن تحف ألسنتنا من الغيبة والنميمة والكلام الفاحش والبذيء، وأن نصل أرحامنا، لأنّ قطع الرحم يقطع الرحمة الإلهية"(٤٧).

وبيَّن دستغيب أقسام التوبة بحسب التكاملات الأخلاقية للفضلاء العائدين التائبين العباد الآبقين، إذ قال "تنقسم التوبة التي تعني العودة إلى الله إلى عدة أقسام بحسب التائبين: العودة من الكفر إلى الإيمان، ومن الشك والتردد إلى اليقين والاطمئنان وكذلك الرجوع من عقيدة الباطل إلى عقيدة الحق، العودة عن المعصية بصغيرها أو كبيرها نحو الطاعة، والعودة من المخالفة إلى الموافقة، العودة عن القصور أو التقصير في معرفة الخالق وأداء وظائف العبودية كما يجب نحو السعي فيها، والعودة عن الغفلة عنه إلى ذكره والإكثار من ذلك، والعودة عن البعد عنه إلى القرب منه وعن الجفاء إلى الوفاء، ويجب أن نعلم أن توبة المعصومين أي الأنبياء والأئمة التي هي من هذا القسم"(٤٨).

وهنا ذكر دستغيب أنّ التكاملات الأخلاقية لا يمكن أن ينالها أي إنسان إلاّ من خلال فضيلة التوبة، حتى الأنبياء أنفسهم لهم تكاملات أخلاقية لا يرتقون إليها إلاّ بالتوبة ومقامها، حيث قال "يتضح لزوم التوبة لجميع البشر حتى الصالحين منهم، لأنّه غير حتى الملوثين بأي معصية وذنب، ومن هم في مقام المعرفة وحال العبودية التي هم فيها، هناك مقام أرفع من مقامهم يجب أن يصلوا إليه، ومقامهم الفعلي بالنسبة لذلك المقام يعتبر ذنباً، وهكذا كل حال من أحوال الذكر، وحد من حدود القرب ففوقه مقام يجب أن يصلوا إليه، اجمالاً كل إنسان وفي أي حد من حدود المعرفة والعبودية والشكر كان، لن يكون يقيناً كما يستحق رب العالمين منه... يجب أن يكون خجولاً من حاله وعبادته وشكره، وأن يكون في مقام السعي للوصول إلى حال ومقام أرفع، خصوصاً بعد الاشتغال بضروريات عالم الطبيعة والالتذاذ باللذات المادية المباحة لأنّه في تلك الحال غير قادر على الاستغراق في

الذكر، أردنا من بيان هذا المطلب بيان استغفار وتوبة المعصومين"[٤٩].

والتوبة منوطة بشروطها للترقي في درجات التكاملات، لأنّ "كل توبة استجمعت شرائطها فهي مقبولة، ذلك أنّ نور الحسنة يمحو عن وجه القلب ظلمة السيئة، وأنّه لا طاقة لظلام المعاصي مع نور الحسنات، كما أنّه لا طاقة لظلام الليل مع نور النهار، وإنما عليك التزكية والتطهير، وأما القبول فمبذول، قد سبق به القضاء الأزلي الذي لا مردّ له، وهو المسمى فلاحاً"[٥٠].

ولا تُنال المقامات الرفيعة من التكاملات الأخلاقية إلاّ بالتوبة، إذ "لا يخفى عليك أنّ التوبة الجامعة للأمور... إنما هي التوبة التامة المستتبعة للعدالة واللحوق بدرجة الصالحين وكمّل المؤمنين، وإلاّ فلا يعتبر في الخروج عن الذنب الذي ليس إلاّ حقاً إلهياً كالصلاة أداء حقوق المخلوقين ولا أداء كل فريضة ضيّعها، لإطلاق الأخبار المتواترة الناطقة بمحو كل ذنب بالتوبة منها"[٥١].

لكن مع أهمية التوبة في الحصول على المقامات الأخلاقية العالية إلاّ أنّ "الوقاية وترك الذنب أفضل طريق لتهذيب النفس، النفس التي لم تتلوّث بالمعصية وبقيت على صفاها وطهارتها الذاتية أفضل حتماً من النفس العاصية التي يتوب صاحبها فيما بعد"[٥٢].

وقد ميَّز دستغيب مراتب تكاملات الأنبياء من مراتب تكاملات عموم البشر، حيث قال "صحيح أنّ البشر عموماً عاجزون عن الوصول إلى مرتبة المصطفى سيد الخلق وأفضل الرسل ومراتب آل بيته المعصومين، إلاّ أنّنا جميعاً مأمورون بالحصول على القلب السليم وهو القلب العامر بحب الله"[٥٣]، لأنّ هناك توبة للعوام وتوبة للخواص وتوبة لأخص الخواص، حيث "لدينا توبة لعموم الناس، وتلك التوبة هي أن يكون القلب خاضعاً لأنّه ارتكب ذنباً، يذكر ذنوبه ومعاصيه أمام الله سبحانه، يضطرب قلبه، يندم على ماضيه، ولا يسير ثانية في ذلك الطريق ويصلح نفسه... التوبة الثانية توبة الخواص، بعض معرفته أكثر، أي يكون خجلاً أمام المكروهات، يكون قلبه خاضعاً وخاشعاً... والأعلى مما سبق هي توبة أخصّ الخواص، توبة النبي الأكرم ﷺ"[٥٤].

وعليه ترى الباحثة أنَ دستغيب يرى أنَ التوبة تحدث اثراً واضحاً في وصول الإنسان

إلى درجة التكامل الأخلاقي، اي أنَ الإنسان بالتوبة تدريجيا شيئا فشيئا يصل إلى مراتب خلقية عليا تصل به نحو الكمال الأخلاقي، وذلك من خلال اخلاء النفس وتخلصها تخلصا تاما وكاملا من كل الرذائل الأخلاقية والتحلي بالفضائل الأخلاقية التي تصل وتسمو بالإنسان إلى اعلى واسمى مراتب التكامل والرقي الأخلاقي وهذا التكامل والرقي لا يصل به الإنسان إلاَ عن طريق فضيلة التوبة الخالصة لله سبحانه وتعالى.

الخاتمة:

إن من أهم النتائج التي توصلت إليها الباحثة في هذا البحث هي:

١- لا ينظر دستغيب إلى التوبة من منظار ديني فقط، بل ينظر إليها أيضا من منظار آخر هو المنظار الأخلاقي، فمثلما يعتبر التوبة هي الأساس في غفران الذنوب، كذلك يعتبرها الخطوة الأولى لبداية السلوك الأخلاقي.

٢- يعتبر دستغيب التوبة هي سلاح الانقلاب الفضائلي من الناحية القيميَة الأخلاقية، فالمناط في فضائلية التوبة هو أنَها السبب في التحولَات القيميَة الأخلاقية، مثلما هي من الناحية الدينية تعتبر مناطا للانقلاب العملي من حالة المعاصي إلى حالة الطاعات.

٣- يرى دستغيب انَ التوبة ليست سببا للتحولات الأخلاقية من الرذائل إلى الفضائل فقط، بل يعتبرها أحد مناطات سعي الإنسان نحو التكاملات الأخلاقية التي هي درجة عالية من درجات الفضائل التي نكتسبها بعد الحصول على مرتبة (الفاضل) نحو السعي لمرتبة (الكامل).

٤- يشترط دستغيب استمرارية وجود حالة التوبة لدى الإنسان كي يتمكن من المسير في طريق التكاملات الأخلاقية من دون تراجع أو توقف، فأي انتفاء لها يعني وقوع الإنسان في رذيلة العُجَب التي تتضمن انتكاسة أخلاقية نحو هاوية الرذائل والخروج من ساحة الفضائل.

٥- لا يحدد دستغيب للتحولات والتكاملات الأخلاقية القائمة على التوبة سنَ معين للإنسان، فالإنسان يرتقي في أخلاقه على طول عمره وبأي لحظة من لحظات عمره،

فمثلما باب التوبة من المعاصي مفتوح للإنسان طيلة حياته وفي أي مرحلة عمرية له كذلك التكاملات الأخلاقية المبنية على التوبة تكون متاحة له خلال المراحل العمرية المختلفة.

هوامش البحث

(١) دستغيب، عبد الحسين، الذنوب الكبيرة، ج٢، تعريب: علي محمد زين، دار البلاغة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ط١،٢٠٠٠م ص٣٣٢.

(٢) دستغيب، عبد الحسين، آداب من القرآن، الدار الإسلامية للطباعة والنشر، بيروت، ط١، ١٩٩٩٢م، ص ١٢٣-١٢٤.

(٣) الكليني، ابو جعفر محمد بن يعقوب، الأصول من الكافي، ج٢، تحقيق: علي اكبر الغفاري، دار الكتب الإسلامية، طهران، ط٣، ١٣٨٨هـ، ص٤٤٠.

(٤) الغزالي، محمد بن محمد، منهاج العابدين إلى جنة رب العالمين، تحقيق: د. محمود مصطفى حلاوي، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، سوريا، ط١، ١٩٨٩م، ص٧٦.

(٥) دستغيب، عبد الحسين، الذنوب الكبيرة، ج٢، ص٣٣٢.

(٦) الشامي، صالح أحمد، المهذب من احياء علوم الدين، ج٢، دار القلم، دمشق، ط٢، ١٩٩٨م، ص٢٤٨.

(٧) دستغيب، عبد الحسين، القلب السليم، ج١، ترجمة: حسين كوراني، مطبعة: ستاره، انتشارات كلمة الحق، إيران، ط١، ٢٠٠٧م، ص٨٩.

(٨) دستغيب، عبد الحسين، حقائق من القرآن، ترجمة لجنة الهدى، دار البلاغة للنشر وللطباعة، لبنان، ط٣، ٢٠١٠م، ص٧٠.

(٩) دستغيب، عبد الحسين، التوبة، نشر مكتبة فخراوي، البحرين، ط١، ١٩٩٣م، ص١٩.

(١٠) دستغيب، عبد الحسين، الذنوب الكبيرة، ج٢، ص٣٣٣.

(١١) الكاشاني، المولى محسن، المحجة البيضاء في تهذيب الأحياء، ج٧، تحقيق وتصحيح: علي اكبر الغفاري، مؤسسة الأعلمي، بيروت، ط٢، ١٩٨٣م، ص٥.

(١٢) الغزالي، محمد بن محمد، منهاج العابدين إلى جنة رب العالمين، ص٧٥-٧٦.

(١٣) دستغيب، عبد الحسين، الذنوب الكبيرة، ج٢، ص٣٣٢.

(١٤) المامقاني، مرآة الكمال لمن رام درك صالح الأعمال، ج٢، تحقيق: محي الدين المامقاني، مطبعة نكارش، دار ما، قم، ط١ و ١٤٢٤هـ، ص٥٣٤. وايضا ينظر: آبادي، محمد، رشحات الأخلاق في التوبة، مطبعة الكوثر، قم، ٢٠٠٦ م، ط١، ص٧٥.

(١٥) المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار الجامعة لدرر الأئمة الأطهار،ج١، مؤسسة الوفاء، بيروت، ط٢، ١٩٨٣م، ص١٥٢.

(١٦) دستغيب، عبد الحسين، الذنوب الكبيرة، ج٢، ص٣٣٣-٣٣٤.

(١٧) دستغيب، عبد الحسين، القلب السليم، ج١، ص٨٨.

(١٨) دستغيب، عبد الحسين، القلب السليم، ج١، ص٨٩.

(١٩) المامقاني، مرآة الكمال لمن رام درك صالح الأعمال، ج٢، ص٥٣١. وايضا ينظر: الصدر، مهدي، اخلاق اهل البيت عليهم السلام، تقديم محمد هادي الموسوي، دار المرتضى، بيروت، ط١، ٢٠٠٦م، ص١٦٠.

(٢٠) دستغيب، عبد الحسين، التوبة، ص٤٠.

(٢١) الغزالي، محمد بن محمد، منهاج العابدين إلى جنة رب العالمين، ص٧٣-٧٤.

(٢٢) دستغيب، عبد الحسين، الذنوب الكبيرة، ج٢، ص٣٣٤.

(٢٣) الشامي، صالح أحمد، المهذب من احياء علوم الدين، ج٢، ص٢٤٩.

(٢٤) دستغيب، عبد الحسين، القلب السليم، ج١، ص٩٠-٩١.

(٢٥) الشامي، صالح أحمد، المهذب من احياء علوم الدين، ج٢، ص٢٥٠. وايضا ينظر: الحيدري، السيد كمال، التوبة شروطها وحقيقتها واثارها، دار فراقد للطباعة والنشر، بيروت، ط١، ٢٠٠٥م، ص٩٥.

(٢٦) يُنظر: دستغيب، عبد الحسين، الذنوب الكبيرة، ج٢، ص٣٣٥-٣٣٦.

(٢٧) سورة التحريم، ايه ٨.

(٢٨) الكليني، الأصول من الكافي، ج٢، ص٤٤٥.

(٢٩) الغزالي، محمد بن محمد، منهاج العابدين إلى جنة رب العالمين، ص٧٢.

(٣٠) دستغيب، عبد الحسين، الذنوب الكبيرة، ج٢، ص٣٣٦.

(٣١) دستغيب، عبد الحسين، الذنوب الكبيرة، ج٢، ص٣٣٧.

(٣٢) يُنظر: دستغيب، عبد الحسين، الذنوب الكبيرة، ج٢، ص٣٤١-٣٤٣

(٣٣) دستغيب، عبد الحسين، مواعظ أخلاقية، ج٢، تعريب: لجنة الهدى، دار البلاغة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ط١، ٢٠١٤م، ص١٦٢.

(٣٤) مبيض، محمد سعيد، أخلاق المسلم وكيف نربي أبناءنا عليها، مكتبة الغزالي، حلب، ط١، ١٩٩١م، ص١٦٦.

(٣٥) دستغيب، عبد الحسين، الذنوب الكبيرة، ج٢، ص٣٣٥.

(٣٦) سورة طه، ايه ٨٢.

(٣٧) المامقاني، مرآة الكمال لمن رام درك صالح الأعمال، ج٢، ص٥٣٣.

(٣٨) المجلسي، بحار الأنوار الجامعة لدرر الأئمة الأطهار، ج٦، ص١٩.

(٣٩) دستغيب، عبد الحسين، القلب السليم، ج١، ص١٠.

(٤٠) دستغيب، عبد الحسين، الذنوب الكبيرة، ج٢، ص٣٤٤-٣٤٥.

(٤١) الغزالي، محمد بن محمد، منهاج العابدين إلى جنة رب العالمين، ص٧١.

(٤٢) دستغيب، عبد الحسين، مواعظ أخلاقية، ج٢، ص١٦٢.

(٤٣) الغزالي، محمد بن محمد، منهاج العابدين إلى جنة رب العالمين، ص٢٩٢.

(٤٤) دستغيب، عبد الحسين، القلب السليم، ج٢، ص٩٥.

(٤٥) الغزالي، محمد بن محمد، منهاج العابدين إلى جنة رب العالمين، ص٢٩٢٩-٢٩٤.

(٤٦) دستغيب، عبد الحسين، الذنوب الكبيرة، ج٢، ص٣٤٥.

(٤٧) دستغيب، عبد الحسين، مواعظ أخلاقية، ج٢، ص١٦٥.

(٤٨) دستغيب، عبد الحسين، الذنوب الكبيرة، ج٢، ص٣٤٣.

(٤٩) دستغيب، عبد الحسين، الذنوب الكبيرة، ج٢، ص٣٤٣-٣٤٤.

(٥٠) الشامي، صالح أحمد، المهذب من احياء علوم الدين، ج٢، ص٢٥٣.

(٥١) المامقاني، مرآة الكمال لمن رام درك صالح الأعمال، ج٢، ص٥٢٩.

(٥٢) الأميني، إبراهيم، تزكية النفس وتهذيبها، دار البلاغة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ط٤، ٢٠٠٠م، ص١٢٦. وايضا ينظر: مظاهري، الأستاذ، الفضائل والرذائل في اخلاق الاسرة والمجتمع و ترجمة:دار الصفوة، بيروت، ط١، ١٩٩٤م، ص١٨٥.

(٥٣) دستغيب، عبد الحسين، القلب السليم، ج١، ص١١-١٢.

(٥٤) دستغيب، عبدالحسين، التوبة، ص٢٧.

قائمة المصادر والمراجع

- القرآن الكريم.

١. آبادي، محمد، رشحات الأخلاق في التوبة، مطبعة الكوثر، قم، ط١، ٢٠٠٦م.

٢. الأميني، إبراهيم، تزكية النفس وتهذيبها، دار البلاغة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ط٤، ٢٠٠٠م.

٣. الحيدري، السيد كمال، التوبة شروطها وحقيقتها واثارها، دار فراقد للطباعة والنشر، بيروت، ط١، ٢٠٠٥م.

٤. دستغيب، عبد الحسين، التوبة، نشر مكتبة فخراوي، البحرين، ط١، ١٩٩٣م.

٥. دستغيب، عبد الحسين، آداب من القرآن، الدار الإسلامية للطباعة والنشر، بيروت، ط١، ١٩٩٢م.

٦. دستغيب، عبد الحسين، حقائق من القرآن، ترجمة لجنة الهدى، دار البلاغة للنشر وللطباعة، لبنان، ط٣، ٢٠١٠م.

٧. دستغيب، عبد الحسين، الذنوب الكبيرة، ج٢، تعريب: علي محمد زين، دار البلاغة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ط١، ٢٠٠٠م.

٨. دستغيب، عبد الحسين، القلب السليم، ج١، ترجمة: حسين كوراني، مطبعة: ستاره، انتشارات كلمة الحق، إيران، ط١، ٢٠٠٧م.

٩. دستغيب، عبد الحسين، مواعظ أخلاقية، ج٢، تعريب: لجنة الهدى، دار البلاغة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ط١، ٢٠١٤م.

١٠. الشامي، صالح أحمد، المهذب من احياء علوم الدين، ج٢، دار القلم، دمشق، ط٢، ١٩٩٨م.

١١. الصدر، مهدي، اخلاق اهل البيت عليهم السلام، تقديم محمد هادي الموسوي، دار المرتضى، بيروت، ط١، ٢٠٠٦م.

١٢. الغزالي، محمد بن محمد، منهاج العابدين إلى جنة رب العالمين، تحقيق: د. محمود مصطفى حلاوي، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، سوريا، ط١، ١٩٨٩م.

١٣. الكاشاني، المولى محسن، المحجة البيضاء في تهذيب الأحياء، ج٧، تحقيق وتصحيح: علي اكبر الغفاري، مؤسسة الأعلمي، بيروت، ط٢، ١٩٨٣م.

١٤. الكليني، ابو جعفر محمد بن يعقوب، الأصول من الكافي، ج٢، تحقيق: علي اكبر الغفاري، دار الكتب الإسلامية، طهران، ط٣، ١٣٨٨هـ.

١٥. المامقاني، مرآة الكمال لمن رام درك صالح الأعمال، ج٢، تحقيق : محي الدين المامقاني، مطبعة نكارش، دار ما، قم، ط١، ١٤٢٤هـ.

١٦. مبيض، محمد سعيد، أخلاق المسلم وكيف نربي أبناءنا عليها، مكتبة الغزالي، حلب، ط١، ١٩٩١م.

١٧. المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار الجامعة لدرر الأئمة الأطهار، ج١، مؤسسة الوفاء، بيروت، ط٢، ١٩٨٣م.

١٨. مظاهري، الأستاذ، الفضائل والرذائل في اخلاق الأسرة والمجتمع، ترجمة: دار الصفوة، بيروت، ط١، ١٩٩٤م.